الفصل الخامس عشر

القول بخلق القرآن وسيلة للانتقام من الفقهاء

تعودنا على أن نقسو فى الحكم على البرامكة ، وأن نمر مروراً عاجلاً وسطحياً بقضاء الرشيد عليهم . مع أن البرامكة كانوا فى الحقيقة حصن الدولة العباسية وضمان أمنها . حقًا إنهم كانوا فرساً ، ولكنهم كانوا قد استعربوا قلباً ولساناً ، وكانوا يخدمون دولة بنى العباس بإخلاص ، فقد كانوا أعرف الناس بالأموال وأساليب جمعها وتخزينها ، ثم صرفها فى خدمة الدولة وخدمة أنفسهم أيضاً . وأهم من ذلك أنهم كانوا قد حصلوا على حسن ظن الفقهاء ، والفقهاء كانوا رؤساء الناس ، أى أن البرامكة كانوا يضمنون الخلفاء فى نظر الفقهاء والجماهير ؛ لأنهم كانوا يعرفون الفقهاء وأقدارهم ، وكانوا يعرفون كيف يعاملونهم بكل ما يستحقونه من احترام ، وقد كان المال خير وسيلة لكسب رضا الناس فى تلك العصور ، ولكن الفقهاء ـ وخاصة كبراءهم ـ ما كان يعنيهم المال إلا فى قليل ، وإنما كان يعنيهم فى المقام الأول الدين والشرف ، وكان البرامكة يعرفون أولئك الرجال ويولونهم ما يستحقونه من

احترام وتقدير ، وإن كان الفقهاء يحافظون على أنفسهم بعيدين عن الدولة ورجالها .

وكانت للبرامكة عيونهم ، ولكننا ننظر هنا نظراً عامّاً ، ونقول : إن البرامكة فى مجموعهم كانوا عصب القوة للدولة فى نظر الفقهاء والجماهير ، فلما ذهبوا ذهب ذلك كله ، وانكشفت الدولة العباسية فى نظر الناس ، وبانت على حقيقتها .

وليت العباسيين عندما قضوا على البرامكة ، عرفوا كيف يعتمدون على رجال أفضل منهم ، أو رجال من العرب على الأقل، ولكنهم اعتمدوا مع الأسف على رجال فرس أسوأ من البرامكة بكثير ، وقد أشرنا إلى حقائق أليمة عن الفضل بن سهل كبير وزراء الرشيد ، وقد رأينا من سوء أخلاقه وعجزه السياسى كثيراً ، وسنرى فيما يلى نواحى أخرى من سوء حال ذلك الرجل.

أما الرجل الثانى الذى اعتمدت عليه الدولة بعد البرامكة ، فكان طاهر بن الحسين بن مصعب البوشنجى ، وهو أبو عبد الله ابن طاهر منشئ الدولة الطاهرية ، وهو فارسى الأصل ، ولكنه لا يمكن أن يقاس بأقل البرامكة ، وإليك الخبر التالى الذى يرويه ابن الأثير عن الحسين بن مصعب والد طاهر ، وهذا الخبر يغنى عن كلام كثير . قال ابن الأثير فى الكامل (٥ / ١٢٥) تحت عنوان : « ذكر عزل على بن عيسى بن ماهان عن خراسان

وولاية هرثمة « بن أعين » : وفيها (سنة ١٨٧هـ / ٨٠٣م) عزل الرشيد على بن عيسى بن ماهان (الذى سيكون من أكبر رجال الأمين ، وسيموت فى الحرب مع طاهر بن الحسين) وكان سبب ذلك ما ذكرناه من قتل ابنه عيسى (بن على بن عيسى بن ماهان) فلما قتل جزع عليه أبوه ، فخرج من بلخ إلى مرو مخافة أن يسير عليه رافع بن الليث (بن نصر بن سيار) ليأخذها . وكان ابنه عيسى قد دفن فى بستانه ببلخ أموالاً عظيمة ، وقيل كان ثلاثين ألف ألف (والمراد ٣٠ مليون درهم فى الغالب) ولم يعلم بها أبوه ، ولَم يطلع عليها إلا جارية له . فلما سار على بن عيسى إلى مرو أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم ، وتحدث به الناس ، واجتمعوا ودخلوا البستان ونهبوا المال ، وبلغ الرشيد فقال : خرج من بلخ بغير أمرى ، وخلف مثل هذا المال ، وهو يزعم أنه باع حلى نسائه فيما أنفق على محاربة رافع (بن الليث بن نصر بن سيار) . فعزله واستعمل هرثمة بن أعين . وكان قد نقم الرشيد عليه ما كان يبلغه من سوء سيرته وإهانته أعيان الناس واستخفافه بهم ، فمن ذلك أنه دخل عليه يوماً الحسين بن مصعب والد طاهر بن الحسين وهشام بن قراخسرو ، فسلما عليه . (المراد هنا هرثمة ابن أعين) قال لحسين : لا سلم الله عليك يا ملحد ابن الملحد ، والله إننى لأعرف ما أنت عليه من عداوة الإسلام والطعن فى الدين .

ولم أنتفز بقتلك إلا أمر الخليفة . ألست المرجف (بى) فى منزلى هذا بعد أن ثملت من الخمر ، وزعمت أنك جاءتك كتب من بغداد ؟ اخرج إلى سخط الله ـ لعنك الله ! ـ فعن قريب (ترى) ما يكون منها . فاعتذر إليه فلم يقبل عذره ، وأمر بإخراجه فأخرج . وقال لهشام بن قرا خسرو : صارت دارك دار الندوة يجتمع إليك السفهاء ، تطعن على الولاة . سفك الله دمى إن لم أسفك دمك . فاعتذر إليه فلم يعذره فأخرجه ، فأما الحسين بن مصعب (والد عبد الله بن الحسين) فسار إلى الرشيد فاستجار به ، وشكا إليه ، فأجاره ، وأما هشام (بن قراخسرو) فإنه قال لبنت له : إنى أخاف الأمير (يريد على بن عيسى بن ماهان) على دمى وأنا مفض إليك بأمر إن أنت أظهرته قتلت ، وإن أنت كتمته سلمت . قالت : وما هو ؟ قال : قد عزمت على أن أظهر أن الفالج (أى الشلل) قد أصابنى ، فإن كان فى السحر فاجمعى جواريك واقصدى فراشى وحركينى ، فإذا رأيت حالتى ثقلت فصيحى أنت وجواريك ، واجمعى إخوتك فأعلميهم علتى ، ففعلت ما أمرها به ، وكانت عاقلة ، فأقام مطروحاً على فراشه حيناً لا يتحرك حتى جاء هرثمة والياً ، فركب فرآه على بن عيسى بن ماهان ، فقال : إلى أين ؟ فقال أتلقى الأمير أبا حاتم ، قال : ألم تكن عليلاً ؟ فقال : وهب الله العافية وعزل الطاغية فى ليلة واحدة ، فعلى هذا تكون ولاية هرثمة ظاهرة .

وهذا هو طراز الرجال الذين اعتمد عليهم هارون الرشيد

بعد البرامكة ، وترى أنهم كانوا من مستوى أخلاقى وضيع ، والعلاقة بين بعضهم وبعض كانت علاقة سيئة .

وكان الرشيد يشعر بذلك ، ولكن لم تك له حيلة ، فقد كان مريضاً بعلة شديدة لا تأذن له بطول التفكير ، ثم إنه كان يخاف العيش فى بغداد ، وقد روى ابن الأثير خبراً يصور لنا حالة الرشيد بعد أن قضى على البرامكة وبايع لولديه الأمين والمأمون ، ثم لابنه الثالث القاسم ، قال : « فلما سار الرشيد من الرقة إلى بغداد يريد خراسان لحرب رافع بن الليث (بن نصر ابن سيار) وكان مريضاً ، واستخلف على الرقة ابنه الثالث القاسم ، وضم إليه خزيمة بن خازم ، وسار من بغداد يريد النهروان لخمس خلون من شعبان سنة ١٩٢هـ ـ ٨٠٨م ، واستخلف على بغداد ابنه الأمين ، وأمر المأمون بالمقام ببغداد ، فقال الفضل بن سهل للمأمون حين أراد الرشيد المسير إلى خراسان : لست تدرى ما يحدث بالرشيد . وخراسان ولايتك ومحمد الأمين المقدم عليك ، وإن أحسن ما يصنع بك أن يخلعك ، وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها ، فاطلب إلى أمير المؤمنين أن تسير معه ، فطلب إليه ذلك ، فأجاب بعد امتناع ، فلما سار الرشيد سايره الصباح الطبرى ، فقال له : يا صباح ، لا أظنك ترانى أبداً فدعا (يريد فدعا له بطول العمر) فقال : وما أظنك تدرى ما أجد ! قال الصباح : لا والله . فعدل عن الطريق ، واستظل بشجرة ، وأمر خواصه بالبعد ، وكشف عن

بطنه فإذا عليه عصابة من حرير (حوالى بطنه) وقال : هذه علة أكتمها عن الناس كلهم ، ولكل واحد من ولدى عَلَىَّ رقيب ، فمسرور رقيب المأمون ، وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين ، وما منهم أحد إلا وهو يحصى أنفاسى ويستطيل دهرى ، وإذا أردت أن تعلم ذلك فالساعة أدعو بدابة فيأتوننى بدابة أعجف قطوف (يريد عجفاء ضعيفة) لتزيد من علتى ، فاكتم عنى ذلك. فدعا له بالبقاء ، ثم طلب الرشيد دابة ، فجاءوا بها على ما وصف ، فنظر إلى الصباح وركبها (ابن الأثير ٥/ ١٢٧ - ١٢٨) .

ويبدو من هذا الخبر أن الرشيد كان يشكو فتقاً أسفل البطن إلى جانب علة أخرى قاتلة ، وكان هو يعرف أنها قاتلة ، ولكنه كان فى حالة سيئة ، ولا يكاد يثق فى أحد ممن حوله ، وما نظن أن حالته كانت ستصير إلى هذا السوء لو أن البرامكة كانوا موجودين ، ولكن الذين خلفوهم فى رياسة الدولة كانوا من شرار الخلق ، وأولهم فى ذلك الفضل بن سهل وطاهر بن الحسين ، وقد كان عمر الرشيد عندما مات سبعاً وأربعين أو ستّاً وأربعين سنة هجرية . وهذه سن صغيرة جداً .

على أى حال رأينا كيف وقعت الحرب والفتنة بين الأمين والمأمون ، وكيف انتصر المأمون وقتل الأمين ، وصار الأمر كله للفضل بن سهل . وكان الناس جميعاً يكرهونه ولا يرضون عن السلطان المطلق الذى فرضه على المأمون .

قال الطبرى : فغضب لذلك بالعراق من كان بها من بنى هاشم ووجوه الناس ، وأنفوا من غلبة الفضل بن سهل على المأمون ، واجترأوا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتن بالأمصار ، وكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا (وهو محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب) قال ابن حزم : القائم مع أبى السرايا بالكوفة ، وأخوه القاسم الرسى بن إبراهيم بن طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم ، وفيه الجمهرة والعدد (جمهرة أنساب العرب ص٤٣) وقد انزعج المأمون ورجاله جميعاً من ثورته ؛ لأنها لقيت من الناس تأييداً شديداً ، مما أفهم المأمون أن الناس لا يحبون بنى العباس ولا يريدونهم ، حقًا إن محمد بن إبراهيم بن طباطبا لم يلبث أن مات فجأة ، بالسم فى الغالب .

ولكن نجاح الدعوة كان مخيفاً للمأمون ، خاصة أن أخا محمد بن إبراهيم بن طباطبا ـ وهو القاسم الرسِّى بن إبراهيم ابن طباطبا ـ استطاع أن ينشئ دولة كبيرة فى اليمن . وكان لثورة محمد بن إبراهيم بن طباطبا صدى بعيد في العراق ومصر ومكة . قال الطبرى (٨/ ٥٢١) : فوثب محمد بن محمد ومن معه من الطالبين على دور بنى العباس ودور مواليهم وأتباعهم بالكوفة وانتهبوها وخربوها ، وأخرجوهم من الكوفة ، وعملوا فى ذلك عملاً قبيحاً ، واستخرجوا الودائع التى كانت عند الناس فأخذوها ، وكان هرثمة ـ فيما ذكر ـ يخبر

الناس أنه يريد الحج ، فكان قد حبس من يريد الحج من خراسان والجبال والجزيرة وحاج بغداد وغيرهم ، فلم يدع أحداً يخرج رجاء أن يأخذ الكوفة ، ووجه أبو السرايا إلى مكة والمدينة من يأخذهما ويقيم الحج للناس (الطبرى ٨/ ٥٣١) .

وأبو السرايا هذا ـ وكان من رجال بنى العباس ـ اشتهر بالجبن الشديد ، وقد قتله الحسن بن سهل . قال الطبرى : «وذكروا أنهم لم يروا أحداً عند القتل أشد جزعاً من أبى السرايا. كان يضطرب بيديه ورجليه ، ويصيح أشد ما يكون الصياح ، حتى جعل فى رأسه حبل ، وهو فى ذلك يضطرب ويلتوى ويصيح حتى ضرب عنقه » الطبرى (٨/ ٥٣٥) وهذا الجبن والصياح غريب من رجل قتل العشرات بل المئات ، ولكن هذا كان طراز رجال بنى العباس بعد موت هارون الرشيد .

والظاهرة الكبرى التى ظهرت فى أيام المأمون وأخافته هى ميل الناس عامة للعلويين وانصرافهم عن العباسيين ، وإحساس هؤلاء بأنهم لا يستطيعون مواجهة العلويين وقواتهم ، وبلغ الأمر أن والى العباسيين على اليمن من قِبَلِ المأمون ، وهو إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد ابن على بن عبد الله بن عباس عندما سمع بمسير إبراهيم بن موسى العلوى إلى اليمن واقترابه من صنعاء خرج منصرفاً من اليمن فى الطريق النجدية بجميع مَنْ فى عسكره من الخيل والرجل ، وخلى لإبراهيم بن جعفر (العلوى) اليمن . وكره

قتاله . وبلغه ما كان من فعل عمه داود بن عيسى بمكة والمدينة ، ففعل مثل فعله ، وأقبل يريد مكة حتى نزل الشاش ، فعسكر هناك ، وأراد دخول مكة فمنعه من كان بها من العلويين (الطبرى ٨/ ٥٣٦) ومن الواضح أن مثل هذه الأخبار كانت تخيف المأمون وتشعره بأن بنى العباس قد فقدوا تأييد الأمة الإسلامية ، وأنهم لن يستطيعوا الثبات للعلويين . وهذا هو الذى جعل المأمون يفكر فى تولية العهد لعلوى ، وفى هذه الظروف نجد أن الفضل بن سهل يشعر بأن مركزه قد ضعف جداً ، وأن هرثمة بن أعين يجتهد فى أن يحل محله من المأمون ، وكان هرثمة رجلاً عاقلاً وخبيراً بشئون الدولة ، ولم يكن يرى ضرورة لقتل الأمين عندما تنازل للمأمون وأظهر له الطاعة واجتهد فى إنقاذه من الموت ، ومال المأمون إلى ذلك ، ولكن الفضل بن سهل غدر بالأمين وسلط عليه من اختطفه وقتله فى صورة أليمة جدًا ، وقد حزن المأمون لذلك ، ولكنه لم يكن يستطيع شيئاً ، ووقعت العداوة بين الفضل بن سهل وهرثمة ، واجتهد الفضل فى الإيقاع بهرثمة ونجح فى ذلك ؛ لأن هرثمة استهان بالمأمون وظن أنه يفرض نفسه عليه ، وعندما وصل مرو فى ذى القعدة سنة ٢٠٠هـ / ٨١٦م جعل يرعد ويبرق ليخيف المأمون ، ولكن الفضل بن سهل كان قد غير قلب المأمون عليه . فلما دخل عليه جعل المأمون يذكر له سيئاته وأخطاءه التى أبلغه الفضل إياها . قال الطبرى : « فذهب هرثمة ليتكلم

ويعتذر ويدفع عن نفسه ما قرف به ، فلم يقبل ذلك منه وأمر (المأمون) به فوجئ على أنفه وديس بطنه ، وسحب من بين يديه . وقد تقدم الفضل بن سهل إلى الأعوان بالغلظة عليه والتشديد حتى حبس ، فمكث فى الحبس أياماً ، ثم دسوا عليه فقتلوه ، وقالوا : إنه قد مات » (الطبرى ٨ / ٥٤٣) وقد كان هرثمة رأس العرب فى بلاط المأمون ، وقد قدم له ولأبيه الرشيد خدمات جليلة ، ولكن الدولة العباسية كانت قد فسدت فعلاً ، وانحدرت إلى مستوى لم يكن من الممكن رفعها منه بعد ذلك أبداً ، وكان العباسيون قد كثروا جدّا حتى قال الطبرى : إن عددهم بلغ فى سنة ٢٠٠هـ ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكر وأنثى، أما العلويون فكانت أعدادهم أكثر ، فكانوا ألوفاً فى كل بلد من بلاد الإسلام رغم من قتل منهم ، وصدق على بن أبى طالب عندما قال : إن السيف أنمى للعدد ، فكلما قتل من العلويين زاد عددهم ، وكان الناس قد جرءوا على المأمون حتى قال له أحد العلويين ـ وهو يحيى بن عامر بن إسماعيل ـ : يا أمير الكافرين ، فقتل بين يديه ، وقد أحس العباسيون أن المأمون يميل إلى العلويين ، وأن فى نيته أن يبايع بالعهد رجلاً علويّا ، فدبروا القيام عليه ، واختاروا المنصور بن المهدى وأرادوه على الخلافة ، فأبى وقال : أنا خليفة أمير المؤمنين حتى يقدم أو يولى من أحب ، وانتهى الأمر بمبايعة إبراهيم بن المهدى بالخلافة فى بغداد تحدياً للمأمون ، وخوفاً مما كان

الناس يسمعونه من أن المأمون ينوى أن يجعل ولاية العهد لعلوى ، ونقل الخلافة من بيت بنى العباس إلى بيت على بن أبى طالب..

وكان الحسن بن سهل متعصباً للفرس ، كما كان الحال مع ابن عمه الفضل ، ولكنه كان أقل شراً . وكان الموقف يحتاج إلى رجل فى ذكائه ؛ فإن بغداد خرجت عن طاعة المأمون ،وبلغ جند العلوى عيسى بن محمد بن أبى خالد بين مائة ألف وخمسة وعشرين ألفاً ، ولكنهم لم يكونوا جنداً نظاميًا بل متحمسين للعلويين ، وسيطر على بغداد رجال الحرب والشطار « وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق ، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به ، فلايقدر أن يمتنع عليهم ، وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك .. » (الطبرى ٨/ ٥٥١) .

وفي هذه السنة (وهى ٢٠١ هـ) جعل المأمون على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ولى عهد المسلمين والخليفة من بعده ، وسماه الرضا على ابن محمد ﷺ ، وأمر جنده بطرح السواد ، ولبس ثياب الخضرة ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

وواضح أن هذه كانت حيلة ابتكرها الحسن بن سهل ، فقد

رأى أن آل على قد كثروا ، وأنه لابد أن يسترضيهم حتى يكون الناس معه ، ثم ينتهى بعد ذلك من على الرضا هذا .

ثم لم يلبث المأمون أن عرف سوء تصرف الفضل بن سهل معه ، وكان الذى كشف له حقيقة هذا الرجل على بن جعفر بن محمد العلوى . (وهو على الرضا) وأخبر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه ، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار ، وأن أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء ، وأنهم يقولون : إنه مسحور مجنون ، وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعمه إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، فقال المأمون: إنهم لم يبايعوا له بالخلافة ، وإنما صَيَّرُوه أميراً يقوم بأمرهم ، على ما أخبره به الفضل ، فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه ، وأن الحرب قائمة بين إبراهيم والحسن بن سهل ، وأن الناس ينقمون عليك مكانه ومكان أخيه ومكان بيعتك إلى من بعدك ، فقال : ومن يعلم هذا من الأهل ؟ فقال له : يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وعدة من وجوه العسكر . فقال له : أدخلهم حتى أسائلهم عما ذكرت ، فأدخلهم ... وتأكد المأمون من ذلك كله، وأكدوا له أن أهل بيته غاضبون عليه ، وأبلغوه بما أبلغه عليه الفضل من أمر هرثمة ، وأن هرثمة إنما جاءه لينصحه وليبين له ما يعمل عليه ، وأنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته ، وأن الفضل دس إلى هرثمة من قتله، وأنه أراد نصحه ، وأن طاهر بن الحسين قد أبلى فى

طاعته ، ودعوا المأمون إلى الخروج إلى بغداد ، وقالوا : إن الجند لو رأوا عزتك سكنوا إلى ذلك وبخعوا بالطاعة .

وقد ضرب المأمون الكثيرين بالسياط لهذا السبب ، وقام الناس على الفضل بن سهل فقتلوه فى ٢ من شعبان سنة ٢٠٢هـ / ٨١٧م . وكان الذين قتلوه أربعة من خدم المأمون وقد أمر المأمون بقتلهم ، وأرسلت رءوسهم إلى الحسن بن سهل ، وولى المأمون الحسن مكان الفضل بن سهل (الطبرى ٨/٥٦٥) .

ومات على بن موسى الرضا ، وكنا نتوقع ذلك ، وقالوا : إنه أكل عنباً كثيراً فمات فجأة ، وذلك فى صفر سنة ٢٠٣هـ / ٨١٧ م ، ورحل المأمون من طوس إلى بغداد ، وفى هذه السنة غلبت السوداء على الحسن بن سهل ، فذكر سبب ذلك أنه كان مرض مرضاً شديداً فراج به من مرضه تغير عقله حتى شد بالحديد وحبس فى بيت ، وكتب بذلك قواد الحسن إلى المأمون ، فأتاهم جواب الكتاب أن يكون على عسكره دينار بن عبد الله ، ويعلمهم أنه قائم على إثر كتابه (الطبرى ٨ / ٥٦٩) .

وفى السنة نفسها خلع أهل بغداد إبراهيم المهدى وعادوا إلى بيعة المأمون ، وحل طاهر بن الحسين محل الفضل بن سهل وابن عمه الحسن ، وخلع المأمون الملابس الخضراء ، ولبس الملابس العباسية السوداء . ثم أصبح طاهر بن الحسين والياً

لبغداد والعراق كله وكل بلاد الشرق حتى التبت ، وذلك فى ذى الحجة سنة ٢٠٥هـ / مايو ٨٢١م . وكتب طاهر وصية طويلة بليغة لابنه عبد الله (بن طاهر بن الحسين) ولم يكن أقل من أبيه كفاءة ، ولكنه كان فارسيّاً يتكلم الفارسية فى مجاله ، وكان آخر كلام قاله قبل موته فارسياً .

وفى سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥م تزوج المأمون بوران بنت الحسن ابن سهل ، وأنفق فى زواجه منها مالاً طائلاً .

وفى ذلك كله ظل الفقهاء بعيدين عن دولة المأمون ، وكانت قلوب الناس معلقة ، وقد حاول أن يسترضيهم فلم يفلح ، فقرر الانتقام منهم ، ومن هنا جاءت محنة خلق القرآن .

★★★